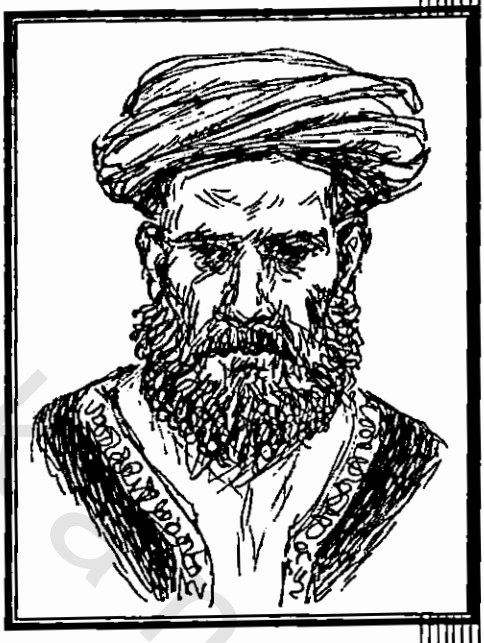

الشيخ العدوي
(١٢٢١-١٣٠٢هـ=١٨٠٦-١٨٨٦م)

يعزل
الخديوي توفيق

obeikandl.com

كان علماء الدين المدركون لحقيقة دورهم: المعتصمون بالله، دائما في قلب كل معركة خاضتها الشعوب من أجل حريتها واستقلالها، إن لم يشاركوا بالحرب والقتال فهم يشاركون بكلمة الحق في وجه السلطان المستبد، يدعمون جبهات القتال بالعلم الديني وبتحفيز النفوس وتقوية لهمم.

في ثورة عرابي، كان للمشايخ صولاتهم وجولاتهم، جاهدوا بالكلمة والقلم والفتوى وحملوا السلاح. إضافة إلى النديم خطيب الثورة، وعرابي قائدها، والاثنان نهلا من علوم الدين - تتلمذا على مشايخ الأزهر، يأتي «الشيخ حسن العدوي»، (١٢٢١ - ١٣٠٣هـ) (١٨٠٦ - ١٨٨٦م) وهو من كبار علماء الأزهر، ومن أقطاب المؤتمر الوطني الذي أقامه الوطنيون لمساندة الضباط الثائرين على ظلم الخديوي.

هذا العالم الكبير لم يكتف بمهمة إعداد النفوس والقلوب لرفض الظلم والاستبداد فقط، وإنما تصدى للخديوي عندما تحالف مع الإنجليز ضد عرابي ورفاقه،فأفتى هو والشيخان«محمد عليش» و«محمد الخلفاوي» بعزل «توفيق» عن حكم البلاد.

وطني غيور:

هذا الموقف لم يكن جديدا على الشيخ «حسن العدوي»، ذلك الرجل الوطني الغيور الذي استمد منهجه من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران، آية ١٠١]، فهم الشيخ هذه الآية حق الفهم فجعلها منهجا له، فأعزه الله بعزته، فلم يكن يخشى في الله لومة لائم، لا يقول، لسانه إلا الحق وقول الصدق، حتى ولو كان مراً.

وقر في قلب وعقل الشيخ منذ أن أخذ العهد على أيدي شيوخه ومعلميه أن العلماء ورثة الأنبياء ماداموا على الحق وماداموا يعملون به ويدعون الناس إليه، ولم يكن يؤمن بذلك قولا فقط، وإنما كان يبدأ بنفسه، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.

في عهد الخديوي إسماعيل، الذي أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا، ورغم نياته الحسنة، لف الأوربيون حبل الديون حول رقبته فغرق وأغرق مصر معه، في هذا العهد، زار السلطان العثماني «عبدالعزيز» مصر. وكان «إسماعيل» حفيا بهذه الزيارة، لأنها كانت جزء من برنامجه لتأكيد سلطانه وتوكيد صلته بأولي الأمر في تركيا، وزاد في الحفاوة ، التكريم أملا منه في الحصول على لقب خديوي، إضافة إلى غيرها من الامتيازات التي كان يطمع في الحصول عليها من السلطان لتمكن له الاستقرار في حكم مصر.

المقابلة السنية:

وحتى يبين «إسماعيل» للسلطان «عبدالعزيز» أنه يستحق أن ينعم عليه بكل مايريده، لأن الشعب بكل طبقاته يدين بالولاء ويحب «إسماعيل»، حتى طبقة العلماء، التي كان يخشى جانبها دائما. من أجل ذلك تضمن برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السرايا.

ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد لابد أن يراعيها الجميع بين يدي السلطان، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض، وغير ذلك من التقاليد المنافية لروح الإسلام الحنيف، التي تجعل السجود والركوع لله سبحانه وتعالى فقط. فلا انحناء إلا لواهب الموت والحياة.

وكان رجال السرايا يدربون العلماء قبل هذه المقابلة بعدة أيام، كي لا يخطؤوا في حضرة السلطان،حتى لا يغضبوه ويكون في حالة مزاجية ونشوة وسرور تجعله ينعم على حاكم البلاد باللقب الذي يطمح ويطمع في الحصول عليه.

وعندما حان الموعد، دخل السادة العلماء الأجلاء على السلطان، كان منهم من نسى دينه، واشترى به دنياه، طمعاً في رضاء السلطان وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات التي تقلل من قدر أى إنسان، فما بالك بورثة الأنبياء.

***

مرفوع الرأس:

وبعد اللقاء خرج هؤلاء بظهورهم موجهين وجوههم إلى الخليفة العثماني، كما أمرهم رجال التشريفات، إلا عالما واحدا، هو الشيخ «حسن العدوي»، ذكر دينه ونسى دنياه، واستحضر في قلبه أنه لا عزة إلا لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. دخل الشيخ مرفوع الرأس في كرامة وإباء، كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فرد عليه الخليفة التحية.

ولم يفوت عالم الدين الفرصة، فربما لا يتمكن من رؤية الخليفة مرة أخرى، وهو يعلم أنه الرأس المدبر لكل ما يدور في السلطنة، ووراء كل ما يحدث للمسلمين، ورسالته كعالم دين توجب عليه أن يؤدي واجبه تجاه هذا الحاكم، وتجاه رعيته.

ابتدر الخليفة بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالم الحاكم، دعاه إلى تقوى الله والخوف من عذابه، والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس، معطيا ظهره للخليفة وإسماعيل وحاشيته(*).

ما فعله الشيخ أصاب الخديوي ورجال السرايا بالخوف والفزع من رد فعل «السلطان عبد العزيز»، بعد هذا التصرف المرفوض - من وجهة نظرهم - من جانب «الشيخ العدوي» الذي لم يلتزم بطريقة المقابلة التي رتبتها السرايا. وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم، وأن السلطان لابد غاضب، وضائعة تلك الجهود التي بذلوا والآمال التي نسجوا.

الكلمة المؤمنة:

ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدى، والكرامة لا تأتي أبداً إلا بالخير، فالكلمة المؤمنة لابد أن تصدع القلوب قوية حارة كما تنبعث من مكمنها قوية

(*) د. عبد الرحمن عميرة، «مواقف العلماء أمام الحكام والولاة»، دار العلم والثقافة: القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٤٨.

حارة، وهكذا كان. فقد أكبر السلطان هذا السلوك الحميد من «الشيخ العدوي» الذي لم يهن دينه ولم تهن كرامته، وقام بواجبه، وقال السلطان موجهاً حديثه إلى «إسماعيل»: ليس عندكم إلا هذا العالم التقي الورع، العارف لوظيفة العلماء وواجبهم تجاه السلطان والرعية، ولم يخلع السلطان أية خلعة هدية إلا على «الشيخ العدوى».

وتمضي الأيام ويخلف الخديوي توفيق والده «إسماعيل»، الذي عزله السلطان، وإن كان توفيق قد بدأ عهده ببعض الإصلاحات التي أراد من خلالها أن يخفف المعاناة عن الشعب، ويجمع حوله النخبة منه، فإن موقفه من التدخل الإنجليزي في شئون البلاد وترك أمور الجيش في أيدي الشراكسة، وقصر الترقي عليهم أغضب العسكريين المصريين ومعهم الوطنيين الغيورين على بلدهم، وكان في مقدمتهم العالم الكبير «حسن العدوي». الذي كان رغم تقدم العمر به، ما يزال على العهد والاقتناع الكامل بأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر- كما قال الرسول ﷺ فما أن قدم الضباط المصريون شكواهم إلى الخديوي توفيق بتحسين أحوال الجيش، حتي دب الخلاف بينهم. وبين الخديوي، الذي رغم إذعانه لطلباتهم، وفتح باب الترقيات أمامهم وتكوين مجلس نواب، وتشكيل وزارة وطنية برئاسة «محمود سامي البارودي» كان عرابي وزيرا للحربية فيها، إلا أنه وبمشورة الإنجليز انقلب ضد الضباط، وجرت محاولة لتصفية «عرابي» وأتباعه، ثم تطورت الأمور إلى نزول الإنجليز بالإسكندرية.

عزل الخديوى:

في هذه الأوقات العصيبة من تاريخ الوطن تُعرف أقدار الرجال، وهنا هب «الشيخ العدوي» مشاركاً في صفوف الثائرين يجمع الكلمة ويوحد الرأي المؤيد للقوي الوطنية.

وعندما غالى الخديوي في مواقفه الموالية للإنجليز والمحبطة للوطنيين والثوار لم

يتوان «الشيخ العدوي» عن الإفتاء بأن الخديوي بتصرفاته هذه يكون خارجاً عن الإسلام، وبالتالي لابد من عزله من حكم البلاد. وذيل هذه الفتوى هو والشيخين «محمد عليش» و«محمد الخلفاوي» من علماء الأزهر. وأصر الثلاثة على نشر وإذاعة هذه الفتوى بين الناس، رغم ما فيها من تحد القوى المؤيدة للخديوي، دون خوف أو رهبة.

فلما حلت الهزيمة وقُبض على «عرابي» والعرابيين، كان «العدوي» واحداً من الذين قدموا للمحاكمة. كانت المحكمة مؤلفة من لفيف من الباشوات ومن رجال الخديوي وعدداً من الإنجليز، أمام المحكمة وقف «الشيخ العدوي» الذي قارب سن الثمانين في مهابة وإجلال، لم يتطرق الخوف إلى قلبه، كان ثابت الجنان، فقد أقدم على ما أقدم عليه وهو لا يبغي إلا نصرة الحق مهما كانت النتائج.

الشيخ الشجاع:

سأله رئيس المحكمة «إسماعيل باشا أيوب» بصوت غليظ جاف: هل وقعت باسمك أو ختم بخاتمك قراراً يقضي أن أفندينا المعظم سمو الخديوي توفيق باشا يستحق العزل لأنه مارق عن الدين ويتعاون مع الإنجليز أعداء البلاد؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السن يستعيد حمية الشباب وحماسته، فنظر إلى أيوب باشا نظرة حادة ثابتة وهو يتكئ بذراعيه على منضدة أمامه وقال: أيها الباشا، إنني قد وقعتها، ولكنني أقول لك ما يأتي:

إنه إذا أحضرت لي الآن ورقة تحتوي علي مثل هذا المعنى الذي ذكرته، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي، وأختمها بخاتمي في حضورك الآن أيها الباشا.

ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلا: إذا كنتم مسلمين فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا قد خان بلاده وذهب إلي الإنجليز وانضم إليهم، ولم يعد جديرا بأن يكون حاكما لنا؟.

واصفر وجه الباشا رئيس المحكمة الذي كان يظن أنه يخيف المحكومين، وأن

الشيخ رهبة من العقاب الذي ينتظره ويمكن أن يتراجع أو يُنكر ما حدث منه، ولكنه أمام شجاعة الشيخ المسن لم ينطق بكلمة واحدة يرد بها على هذا العالم الشجاع الجريء، وأومأ إلى حراس المحكمة أن يأخذوه ويخرجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلى قريته واعتقلوه فيها(*).

هكذا كان شيوخ الامس، فهم ملح الأمة، وشتان بينهم وبين شيوخ اليوم الذي قال فيهم الشاعر:

يا علماء الأمة يا ملح البلد ماذا يصلح الملح إذا الملح فسد

(*) د. سمير محمد طه: «أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية» الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٨٨٦م.

obeikandl.com